النزعات القوميـــة

فى أدبنا المعـــاصر

للأستاذ سامى الكيالى

. . . حين أذكر الأدب العربى فى معرض بحث من البحوث الأدبية أريد من ذكره الشمول الذى يضم تحت لوائه الأدب المصرى والأدب الشامى والأدب العراقى والأدب الحجازى والأدب الأندلسى وكل بقعة عربية ينتج أدباؤها وشعراؤها أدباً يعبر عن شتى منازع الحياة .

والنزعات القومية فى أدبنا المعاصر بدأت قوية فى شعر الشعراء وأدب الكتّاب منذ بداية القرن التاسع عشر ، وقبيل هذه الفترة بسنوات .

فقد اعتبر الأدباء والشعراء والمفكرون — اعتبروا أدبهم وسيلة للنهوض بأوطانهم وبالأمة العربية التى ظلت أجيالا طويلة تحت سجف الغيبوبة والجهالات محكومة لغيرها ، لا تتمتع بما تتمتع به الأمم الحرة أو بما كانت تتمتع به الأمة العربية يوم كانت ذات صولة وسيادة وسلطان .

ولقد انبثقت الصيحات من هنا وهناك ، تقاوم نزعات الطغيان وتدعو إلى التحرر من نير الأجنبى ، وتهيب بالشعوب العربية أن تعمل عمل أسلافها فى سبيل العزة والكرامة ، وفى سبيل سيادتها وحريتها السليبة .

ففى مصر ، كما فى سوريا والعراق كانت الدعوة إلى اليقظة والتحرر هى سبيل الشعراء والكتاب والمفكرين . .

ولا نرجع بعيداً إلى الوراء فحسبنا أن نلمع إلى هذا الماضى القريب الذى عشنا فى ظلاله . . فصيحات الأفغانى ومحمد عبده وسعد زغلول وأحمد لطفى السيد وقاسم أمين وشوقى وحافظ فى مصر — أن صيحاتهم كانت دعوات صارخة لتحرير مصر والشرق من العبوديات — عبودية الجهل ، وعبودية الاحتلال . .

أى كان إنتاجهم الفكرى يقوم على البعث القومى ، وكان صورة من هذه النزعات التى تثير أدق ظاهرة تمس شعور الأمة ووجدانها القومى .

وفى الشام كانت صيحات الكواكبى واليازجى والدلّال وأديب اسحق وشكيب أرسلان وخليل مطران صيحات قومية — كان أدبهم وشعرهم يتناول النزعات القومية أكثر من أى شىء آخر . .

وقل مثل هذا عن الزهاوى والرصافى والكاظمى فى العراق . . وأندادهم من كبار الأدباء والشعراء فى مختلف البلاد العربية . . أن أدبهم لم يكن فى تلك الفترات ، وسيلة من وسائل التلهية بل كان أداة لهز وجدان الأمة وضميرها الغفيان .

ولا ضير علينا أن نجول جولة قصيرة ، من قبيل الاستطراد ، فى أدب أولئك الهداة المصلحين ، الذين أفزعهم ما كانت عليه الأمة العربية من خمول وغفوة ، فراحوا يهيبون بها أن تصحو وأن تنهض بأفانين مختلفة من القول — من رائع النثر وجيد الشعر . .

فجمال الدين الأفغانى ، إلى أنه مصلح دينى ، كان فى مقالاته وخطبه ، هذا الثائر القومى الذى يريد للشعوب الشرقية أن تتحرر من الجهالات ، وأن تستعيد عزتها وكرامتها ومكانتها السامقة بين الأمم الكبيرة الحرة ، أى كانت صيحاته ، ولا سيما فى الفترة التى شهد فيها التدخل الأجنبى فى عهد اسماعيل — كانت صيحات ذات طابع قومى ، وكانت كلماته كالسوط فى جسم الشعب ، فمن كلماته التى دعا فيها المصريين إلى التحرر والثورة قوله :

« إنكم معاشر المصريين قد نشأتم فى الاستعباد ، وربيتم فى حجر الاستبداد وتوالت عليكم قرون منذ زمن الملوك الرعاة إلى اليوم ، وأنتم تحملون عبء نير الفاتحين ، وتئنون من وطأة الغزاة الظالمين ، تسومكم حكوماتهم الحيف والجور ، وتنزل بكم الخسف والذل ، وأنتم صابرون بل راضون ، وتستنزف قوام حياتكم — التى تجمعت بما يتحلب من عرق جباهكم — بالعصا والمقرعة والسوط وأنتم صامتون ، فلو كان فى عروقكم دم فيه كريات حيوية ، وفى رؤوسكم أعصاب تتأثر فتثير النخوة والحمية ، لما رضيتم بهذا الذل وهذه المسكنة . تناوبتكم أيدى

الرعاة ، ثم اليونان والرومان والفرس ، ثم العرب والأكراد والمماليك ، وكلهم يشق جلودكم بمبضع نهمه ، وأنتم كالصخرة الملقاة فى الفلاة لا حس لها ولا صوت.

انظروا أهرام مصر ، وهياكل منفيس ، وآثار طيبة ، ومشاهد سيوه ، وحصون دمياط ، فهى شاهدة بمنعة آبائكم وعزة أجدادكم ، هبوا من غفلتكم ، اصحوا من سكرتكم ، عيشوا كباقى الأمم أحراراً سعداء » .

وبالرغم من قسوة هذه الكلمة وثقل وقعها على النفوس والأسماع فقد تقبلها المصريون بقبول حسن ، لصدورها عن قلب رجل محب يريد الخير لمصر والحياة الحرة السعيدة للمصريين . .

ومقالات محمد عبده التى كان يغمرها الحماس الدينى أيضاً كإمام من أئمة الإسلام كانت فى مجموعها صيحات قومية مثيرة حتى رأى بعض الباحثين الذين أرخوا لمصر أن مقالاته كانت من العوامل التى أضرمت نار الثورة العرابية ، فمن كلماته الحكيمة فى قداسة الوطن قوله :

« . . وجملة القول أن فى الوطن من موجبات الحب والحرص والغيرة ثلاثة تشبه أن تكون حدوداً .

الأول : أنه السكن الذى فيه الغذاء والوقاء والأهل والولد .

والثانى : أنه مكان الحقوق والواجبات التى هى مدار الحياة السياسية وهما حسيان ظاهران .

والثالث : أنه موضع النسبة التى يعلو بها الإنسان ويعز ، أو يسفل ويذل وهو معنوى محض . .

فاذا تقرر ذلك مما قلناه وجب على المصرى حب الوطن من كل هذه الوجوه . .

ثم قال : وكأنى به كان يرد من طرف خفى على كلمة أستاذه جمال الدين التى تقدمت هذا الكلام :

« وقد كان بعض الناس يحاولون خلع الشعار الوطنى عن ذوى الحقوق والواجبات فى مصر وإلباسهم جميعاً لباس الجهالة والذل ، ولكن أبت الحوادث

إلا أن تثبت لنا وجوداً وطنياً ورأياً عمومياً ولو كره المبطلون . على أن منهم فئة لا يزالون يؤلمون أسماعنا بما يكررون من سفاسف القول من مثل أننا تعودنا احتمال الظلم والحيف ، وألفنا الخدمة والرق فلن يستقل لنا رأى ، ولن نهتدى سبيل الحرية كأنما هم لا يعلمون أن أهل الغرب أجمعين تعودوا مثل ذلك الحيف أعصاراً وكانوا فى قديم الأيام على ضروب من الرق وانخفاض الجناح وأن العالم بأسره كان فريقين : أحراراً يظلمون ، وعبيداً يطيعون . أو لم يكن فى بلاد الفرنسيس من قبل هذا العهد صنوف من الرقيق يشتغلون فى الأرض لغيرهم ويباعون كما تباع العجماوات ، أو لم يقل كاتبهم فولتير فى وسط المائة السابقة .

« لا يزال فى بلادنا ستون ألفاً أو سبعون ألفاً عبيداً للرهبان » .

فما بال هذه العـــادة لم تمنع الفرنسيس من الوصول إلى ما أدركوه من رفعـــة المقام وأن يروا أمثال تيارس وجريفى وغمبتا فى أبناء كانوا من قبل عبدانا أرقاء . .

ولئن كان من فضل هذه المائة أن يكتب فى صدر تاريخها تحرير أرقاء العصر السالف فقد رجونا وحقق الله هذا الرجاء أن يختم ذلك التاريخ بتحرير الذين كانوا أرقاء هذا العصر ، وحسن ذلك ابتداء وحسن ذلك ختاماً » .

ومقالات أحمد لطفى السيد وخطبه كانت فى مجموعها دعوة صارخة إلى تعزيز الروح القومية ، وقد يكون من الأوائل الذين بذروا بذورها الخصبة فى عقلية الجيل الجديد ، ووجهوه هذه الوجهة التى حولته من التعلق بأذيال « العثمانية » إلى التمسك بأهداب « المصرية » الصميمة .

وكتب قاسم أمين التى تفيض بالنزعات الاجتماعية ، والاتجاهات التقدمية كانت فى مجموعها أيضاً ذات أهداف قومية صريحة .

أما سعد زغلول فحسب أدبه وخطبه أن يكون من أثرها إضرام نار الثورة المصرية فى سنة ١٩١٩ والتى لم يقف لهيبها فى حدود المملكة المصرية بل تعدى هذا اللهب إلى الشرق العربى بكافة أقطاره وشتى شعوبه ، فكانت صيحاته الثورية القومية ذات دوى ورنين ، وأثر مكين ، فى قلوب الشرقيين أجمعين .

ومن قبله الزعيم الوطنى الثائر مصطفى كامل ، فقد كان أدبه ذا لون قوى

صريح ، وكانت كل خطبه ومقالاته دعوة إلى الثورة والتمرد ، فمن كلمة جاءت عرضاً فى إحدى خطبه النارية قوله :

« اذكروا مصر . .

فإن من ذكراها ذكرى آلامها .

وذكرى الآلام يجر حتما إلى ذكر عوامل الشقاء .

اذكروها كما يذكر الولد الحنون أمه الشفيقة وهى على سرير المرض والعناء . .

اذكروها بآلامها وإن كان غيركم يذكر بلاده بمجدها ورفعة شأنها . .

اذكروها فأنتم ما دمتم مقدرين لمصائبها ، عارفين بحقيقة آلامها دام الأمل وطيداً فى سلامتها ودام الرجاء .

اذكروها فمن المستحيل أن يرى العاقل النار فى داره ، والداء فى شخص أمه ، ويهمل النار ويهمل الداء ، ومن المستحيل كذلك أن يكون الوطن فى خطر ونحن نيام ، وأن يعمل الأجنبى لامتلاك بلادنا وسلب حياتنا بل لاستعبادنا واسترقاقنا ونحن جامدون لاعمل ولا حراك .

ألقوا ، أيها السادة ، بأنظاركم إلى الأمم الحرة تجدوا كل فرد فيها يدافع عن وطنه ويذود عن حوض بلاده أكثر من دفاعه عن أبيه وأمه بل هو يرضاهما ضحية للوطن ويرضى نفسه قبلهما قرباناً يقدمها لإعلاء شأن بلاده . ويعد الموت لأجل الوطن حياة دونها الحياة البشرية ووجوداً دونه كل وجود ، فلم لا يكون المصرى على هذا الطراز ، ووطنه أجمل الأوطان وأحقها بمثل هذه المحبة الشريفة الطاهرة .

اسألوا التاريخ ، أيها السادة ، ما واجب أمة دخل الإنكليز دارها خدعة وعملوا لامتلاكها وسلبها كل سلطة وكل قوة — يجبكم التاريخ أن واجب أمة هذا شأنها أن تعمل بكل ما فى استطاعتها ضد مغتصبيها ، وأن تبذل فى سبيل خلاص وطنها كل ما تمتلك من مال ورجال » .

وشعر شوقى وحافظ والمطران — كان الكثير من شعرهم نفحات قومية تهيب بالشرق إلى التحرر والنهوض .

ومقالات الكواكبي كانت صيحات مدوية في أرجاء الشرق العربي – تلك المقالات التي اشتمل عليها فيما بعد كتابه « طبائع الاستبداد » ، ولا نبالغ إذا قلنا أنه كان أجرأ مفكر عربي دعا إلى الثورة والتمرد والتحرر – الثورة على الظلم والاستبداد ، والتمرد على الطغاة المستبدين ، والتحرر من الجهالات والعبوديات .

وأديب اسحق المفكر الحر الذي كان متأثراً بالآداب الأوروبية – بأدب فولتير وجان جاك روسو وبمبادىء الثورة الإفرنسية – فقد كان من دعاة الحرية وكانت النزعة القومية تنبثق كاللهب من ثنايا مقالاته وخطبه . . فمن كلماته من مقال كتبه سنة ١٨٨٠ .

« لقد عرف الناس الآن شرور الاستبداد ، وترفعت نفوسهم بالعلم عن الرضا به ، وصار الأمر شورى عند جميع الأمم المتمدنة إلا الروسيا . . . وذلك أن صحت تسمية الدولة المستبدة مطلقاً بدولة متمدنة . ان ثورة فرانسا برزت إلى عالم الفعل عام ١٧٨٩ وصدمت قوة الاستبداد فزلزلتها ، ودفعت سطوة التقاليد فضعضعتها ورفعت عن العيون نقابها ، وعن النفوس حجابها فآنست من جانبها نور الحرية ، وخلعت جلابيب الرق والعبودية ، فتصدى لها أعوان الرق وأنصار العبودية وما آلوا في قتالها جهداً ، فلقيتهم وهي ترى الموت في الحرية حياة ، وفي الحياة في الرق موتاً ، فلم يبلغوا منها قصداً ، ورسخت في عالم الوجود قدمها ، وأدهشت الدنيا بشدة حولها » .

وابراهيم اليازجي ، وهو من علماء اللغة الأفذاذ ، لم يكن أقل اندفاعاً في الدعوة إلى الروح القومية من الكتاب والشعراء ، فكان أدبه يفيض بالنزعات القومية الصارخة فمن قوله :

تنبهوا واستفيقوا أيها العرب ... فقد طمى السيل حتى غاصت الركب
فيما التعلل بالآمال تخدعنا ... وأنتم بين راحات القنا سلب
كم تظلمون ولستم تشتكون وكم ... تستغضبون فلا يبدو لكم غضب
فشمروا وانهضوا للأمر وابتدروا ... من دهركم فرصة ضنت بها الحقب

وعبد الحميد الرافعي ، الشاعر السوري الحر ، ابن طرابلس الشام –

كانت له صيحات قومية تدعو إلى « العصبية الجنسية » فمن شعره يهيب ببنى قومه إلى تعزيز هذه العصبية قوله :

ما تصلح الدنيــا ولا ناسها ... ما لم يل الأقوام أجنـاسها
هبوا بنى العـرب إلام الكرى ... وقـد دعـا الآمـال دهاسها
فكم تقيمـون على ذلـة ... وروضـة الصـبر ذوى آسهـا
ألستم نسـل القـروم الأولى ... تنتعـل الهـامات أفراسهـا
فجردوا العـزم الذى طالمـا ... شـق صـدوراً طال وسواسهـا

ومعروف الرصافى الشاعر العراقى الكبير ، فقد ظل خمسين سنة يهيب بالأمة العربية أن تفيق وأن تنهض ، ولأكثر شعره هذا الطابع القومى .

وارتفع صوت عبد المحسن الكاظمى الشاعر الأبى بالشعر القومى وبهـذه النزعات القومية الثائرة :

يا أيهـا العرب واد ... عوا العرب أنـّى وجدوا
لئن تشاءوا أن تُرا ... حوا من عناء فاجهدوا
ألستموا من حرموا ... حقوقهم واضطهدوا
وكلما عنّ لهم ... ذكر الحمى تنهدوا
أما كفاكم حافـزاً ... ذكر الذين استشهدوا
يا قوم أن تهـاونوا ... فحـركم مسـتعبد
من نام عن أوطانه ... فذاك ميت يلحـد
ومن يمت دون حما ... ه فهو حى يحمد
الوطن الروح ومـا ... أهلوه إلا الجسـد
وكيف يسهو بـدن ... عن روحه ويرقـد
مجدى وما مجدى إ ... لا الوطن الممـَجَّدُ
حبيب نفسى وطنى ... آهـله والفـدفـد
رب أناس عبثـوا ... بنـا ولم يتئـدوا
ضلوا الهدى ولقنـوا ... ببطلهم وزودوا
إذا رأوا شاكلة الـ ... قوم رموا وسددوا

هيا بنا نعـد ما تنهى إليه العـدد
يفوز من عـدته عزيمـة لا تخمد
وغـيرة جـذوتها طول المدى تتقـد
إن قيل خطب انبرى أشيبهـا والأمـرد
بعض لبعض حرم بعض لبعض عضد
وكلهم على العـدى إذا العدى تمردوا
على سوى نفوسهـم فى الأمر لم يعتمدوا
يا حبذا لو عاد بالـ بشر القريب العود
نروح فى ديـارنا والعيش عيش أرغد
ونفتدى أوطاننـا والعز عـز سرمد

والقصيدة طويلة وهى مائتى بيت تقريباً ، وقد كان الكاظمى يرجل الشعر ولا تقل قصيدته الواحدة عن المائة والمائتى بيت وكلها تفيض بالشعر القومى العارم .

لقد كان للقصائد التى نظمها الزهاوى والرصافى والكاظمى والشبيبى وغيرهم من شعراء العراق — وهى ذات نزعات قومية صارخة — كان لهذه القصائد أثرها البليغ فى إهاجة النفوس التى انتهت لا إلى « الوعى القومى » فحسب بل إلى إضرام أكثر من ثورة على الغاصبين .

* * *

وكما كان الاتجاه القومى سبيل الكتاب فى القرن التاسع عشر ، فقد ظل هذا الاتجاه سبيل الكثير من الكتاب والشعراء والمفكرين حتى مطلع القرن العشرين وإلى يومنا هذا . . ذلك لأن الأمة العربية لا تزال فى نضالها العنيف مع الأمم المستعمرة . . ولابد للأديب من أن يتحسس بأحاسيس قومه ويعبر فى نثره وشعره عن هذه الأحاسيس .

ولئن كانت النزعات القومية فى أدبنا بالأمس محدودة النطاق فقد اتسعت اليوم واستفاضت وأصبحت شائعة على ألسنة القادة والزعماء والأدباء والشعراء

تملأ أعمدة الصحف وتصادر فى شؤونها الرسائل والكتب . . وما تلك المقالات الرئيسية التى تكتب كل يوم فى الصحف ، والخطب التى تلقى فى المناسبات القومية ، إلا صورة من صور الأدب القومى الذى يؤرخ مرحلة من مراحل جهادنا الطويل ، ولن يتسع المجال لأن نورد نماذج مما تفيض به النفوس فى يومنا هذا ، فهذا فوق المستطاع من جهة ولأن القراء على اتصال كل يوم بهذا الأدب الذى يرسم لهم الطريق الواضح فى سبيل الانطلاق والتحرر من كل مايعيق سير هذه الأمة التى دب الوعى فى كل نبضة من نبضات جسمها .

ثمة ظاهرة جديرة بأن نشير إليها فى مقالنا هذا ، فقد كان لازدهار الحركات القومية أثره غير المنكور فى هذا التطور الذهنى الذى يساير نهضة الأمة العربية .. فقد كثر الأدباء والشعراء والمفكرون والعلماء وأخذ إنتاجهم ألواناً مختلفة من شتى فروع العلم وألوان المعرفة .. وهذا شىء طبيعى قد تمشى مع وثبة الأمة وتطورها وبالرغم من اتساع هذه الآفاق التى اشتمل عليها الأدب العربى نتيجة لهـذا التطور — بالرغم من ذلك لم يخل أدبنا من هذه التيارات القومية التى تثير فينا حس النضال .

والأدب القومى عند جميع الأمم ، وفى مختلف العصور ، بواعث لحفز الهمم وركائز لدعم السيادة ، وما نخلت أمة قط ، حتى الأمم القوية التى تتمتع بسيادتها وجبروتها عن دعم أدبها القومى ، لأنه غذاء دسم للأمة وأى غذاء بل هو بعض مقومات كيانها . . وهو ، إلى قيامه بهذه المهمة الخطيرة فى إحياء الشعور القومى والحفاظ عليه ، يظل صورة للتعبير عن خوالج الأمة وأداة لرسم مشخصاتها وهو إلى هذا أيضاً حشد رائع من اللوحات الفنية التى تنعكس على ألوانها مباهج الوطن بأرضه وسمائه بجباله وأوديته بأنهره وبحيراته ، بأكواخه وقصوره ، بهوائه ومائه وكل مايربط الإنسان بالأرض التى أنبتته والسماء التى أظلته . .

لا أريد أن أسترسل فى وصف الدور الخطير الذى يلعبه الأدب القومى فى حياة الأمم ، فقد مررت بهذه الكلمة استطراداً فى معرض كلامى عن النزعات القومية فى أدبنا المعاصر . . والذى أريد أن أشير إليه فى ختام هذا البحث أن النزعات القومية فى أدبنا ، قد بدأت ، كما قلت ، منذ بداية القرن التاسع عشر

ولاتزال حتى يومنا هذا ، ذلك لأن الأمة العربية ما تزال في نضال مستمر مع الأمم ذوات النزعات الاستعمارية . . وبديهي أن تكثر ، نتيجة لذلك، النزعات القومية في أدبنا الذي يصور اتجاهاتنا في هذا النضال أدق تصوير ، ولا سيما وقد مرت الأمة العربية خلال منتصف القرن العشرين بأحداث جسام ، منذ كان مصيرها مرتبطاً بالأمبراطورية العثمانية ، إلى أن شب النزاع قوياً بين العرب والترك ، إلى اندلاع الثورة العربية من بطاح مكة ، إلى تقسيم البلاد العربية إلى مناطق نفوذ افرنسية وانكليزية ، إلى هذه الثورات التي نشبت في مصر وفلسطين والشام والعراق ضد الغاصبين — كل هذه الأحداث القومية قد أثارت شعور الكتاب ، وقرائح الشعراء بصورة خاصة ، فراحوا يعبرون عن هذه الأحاسيس تعبيراً صادقاً هو بمجموعه بعض صور الأدب القومي ، وقد ظهر ذلك بارزاً قوياً في محنة فلسطين الأخيرة حتى كاد أدبنا العربي في هذه الفترة يصطبغ بهذا اللون الدامي الذي عرفه الأدب العربي قبل خمسمائة سنة عندما أضاع العرب في أوروبا الأندلس — ذلك الفردوس المفقود الذي بكيناه بالدم الأحمر . .

ويضيق المجال لو رحت أرمز إلى هذه النزعات ، وهي كثيرة في شعر الشعراء وأدب الأدباء ومقالات الكتاب وبحوث المفكرين وحتى في كتب بعض المؤلفين . . . وهي غذاء روحي لنضالنا القومي في هذه النهضة التي تهدف أول ما تهدف إليه — إلى تحرير البلاد العربية سياسياً واقتصادياً واجتماعياً لتستعيد مكانتها السامقة من جهة ، وتعمل من جهة ثانية ، مع الأمم الحرة المخلصة لمبادئها في سبيل هناءة الشعوب التي لا تزال ترسف في قيد الاستعمار .

سامي الكيالي